

موقف الأمير عبد القادر من علم الكلام

Prince Abdul Qadir's position on "ealm alkalam"

آسيا دقيش¹

طالبة دكتوراه جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان

assiadekkiche92@gmail.com

د. عبد المالك بن عباس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

malekbenabbas@gmail.com

تاريخ الوصول: 2020/01/31 القبول: 2020/12/23 النشر على الخط: 2021/06/15

Received: 31/01/2020 Accepted : 23/12/2020 Published online : 15/06/2021

ملخص :

هدفت الدراسة إلى معرفة موقف الأمير عبد القادر الجزائري من علم الكلام، حاولت فيها الباحثة استقراء جميع مؤلفات الأمير الكلامية، بدءاً من كتابيه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل والمقراض الحاد، وصولاً إلى آخر مؤلفاته "المواقف"، معتمدة في ذلك على منهج وصفي لعرض أهم هذه الشخصية في مسائل علم الكلام المعروفة.

وقد خلصت الباحثة إلى جملة من النتائج أهمها أن علم الكلام عند الأمير قد تطور عما كان في بدايات مؤلفاته، ليأخذ طابعا ولغة صوفية واضحة المعالم، حددت موقفه الإيجابي منه، وهذا المزج يتفق مع ما عاشه الأمير من تجارب روحية أسهمت بشكل كبير في تكوين وصقل هذه النظرة الكلية والجديدة حول علم الكلام وعلم التصوف.

الكلمات المفتاحية: علم الكلام - موقف - التصوف - التوحيد - الألوهية .

abstract

The study aimed to find out the point of view of Emir Abdelkader Aljazairi concerned the "Eulm Alkalam", in which the researcher has tried to extrapolate all the writings of the Emir of science of speech, starting from both books "Dikra El Aakil waTanbeeh El Ghaffil" and "Mikrad ElHad", and up to his last book "Mawakif", based on a descriptive approach to present the most important views This character in known science matters.

The researcher has reached several conclusions, the most important of which is that the Emir's point of view un the "Eulm Alkalam "has evolved to take on a clear-cut Sufi character, which has determined his positive attitude towards it. This combination is consistent with the Emir's experience of spiritual experiences that contributed significantly to the formation of this holistic view of theology and mysticism.

Keywords:Unification-divinity-opinion-mysticism-eulm alkalam.

¹ المؤلف المرسل: آسيا دقيش البريد الإلكتروني: assiadekkiche92@gmail.com

مقدمة:

إن الآثار التي تركها الأمير عبد القادر الجزائري تعد إرثاً معرفياً قيماً يعبر عن الزخم الروحي الذي عاشه هذا المتصوف والمجاهد الشهير ، ولعل الآثار الشعرية والدواوين التي خلفها، بالإضافة إلى الكتب القيمة تعد منتوجاً مهماً في وصف الحياة الفكرية والروحية لهذه الشخصية الفذة في حقبة زمنية غابرة، كما تعبر أيضاً تعبير عن النضج والسمو الروحي الذي وصل إليه الأمير عبد القادر الجزائري رغم الحياة الصعبة والقاسية التي مرت بها الجزائر إبان الفترة الاستعمارية للمحتل الفرنسي الغاشم ، وما مر به بطلنا من مواقف شهد له التاريخ فيها بالصمود والمجد والعظمة ، ولأن حياة الأمير لم تقتصر على الجهاد بالسيف فقط ، بل تجاوزته إلى الجهاد الروحي القلبي والقلبي، محققاً بذلك أسمى معاني القوة والصبر في اكتساب العلوم والمعارف، وهذا السير الحثيث في بناء منظومته الفكرية تمخض عنه أفكار ورؤى ساعدتنا في تقديم صورة واضحة المعالم إلى حد ما عن رؤيته الفكرية والفلسفية التي انطلق منها ، فكان للأمير أقوال باقية في مسائل متنوعة ، ومنها مسألة علم الكلام ، والأمير كغيره من العلماء الأفاضل قد ترك لنا بصمة واضحة وأثراً بيناً قد لا يباين في كثير من الأحيان مواقف شخصيات تأثر بها وسار على نهجها.

ونحن كباحثين سنحاول سبر غمار هذه المواقف ورفع ستائرنا، قصد معرفة موقف الأمير من علم الكلام ومنهج الذي ارتضاه في هذا الموضوع، ومدى نجاعة هذا الأخير بحيث تكون العناية بها أولى وأؤكد.

وانطلاقاً من هذه المقدمة نطرح التساؤلات الآتية:

ما موقف الأمير عبد القادر من علم الكلام؟ وماهي أهم الآراء الكلامية التي تناولها في كتبه؟ وما هو منهجه في تناول قضايا هذا العلم؟

المطلب الأول: تعريف علم الكلام

قبل معرفة موقف الأمير من علم الكلام رأينا أنه من اللازم الشروع بتعريف علم الكلام عند المتكلمين الأوائل ومعرفة أهميته انطلاقاً من ماهيته.

اختلفت النظرة لعلم الكلام واختلفت معه تعريفاته وتعددت وتضاربت المواقف حوله، فهناك من عرفه بالنظر إلى موضوعه والآخر بناء على وظيفته أو الفائدة منه، وسنحاول أن نذكر بعضاً منها هذه التعريفات التي عرفها علم الكلام أو ما يعرف بعلم العقيدة.

يعرفه الغزالي (ت505 هـ) بأنه: "علم مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة"¹ وبذلك فإن الغزالي يعرفه بالنظر إلى غايته والفائدة المرجوة منه وهي الحفاظ على العقيدة من تشويش أصحاب البدع، ولكنه يقوم بحصر وظيفته في الدفاع عن مذهب أهل السنة دون المذاهب الأخرى، ويشابه تعريف ابن خلدون (ت808 هـ) حيث يقول: "هو العلم الذي يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية"².

¹ أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تح جميل صليبا و كامل عياد، دار الأندلس للطباعة والنشر، لبنان ، ط 7 ، د ت ، ص 71.

² عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تح أحمد جار، دار الغد الجديد للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1438 هـ - 2017 م،

وإن كان الغزالي وابن خلدون يضيّقون الغاية من علم الكلام فإن الفرابي (339) يجعله أكثر شمولية واتساعاً، حيث يقول: " وصناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرّة الآراء والأفعال المحمودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقوال⁽¹⁾. وغير بعيد عنه تعريف **عضد الدين الإيجي** (٧٥٦هـ) الذي يجعل له معنى شاملاً وواسعاً، حيث يقول هو: "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج، ودفع الشبه، والمراد بالعقائد: ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد صل الله عليه وسلم، فإن الخصم، وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام⁽²⁾. " ونفهم من تعريفه أنه لا يحصر مهمة علم الكلام على الدفاع فقط ولا على أهل السنة، وإنما مهمته تتعدى الدفاع إلى الإثبات، ولا يخرج الخصم مع خطئه من علماء هذا الفن دام أنه يستعمله للدفاع عن عقيدته ولو كانت مخالفة.

ويفضل **الفتازاني** (ت 792هـ)، أن يحصر وظيفة علم الكلام في تحصيل العلم بالعقيدة حيث يقول: " هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة العقلية³، ولكنه في نظرنا تعريف محدود جداً لا يوفي علم الكلام حقه، ونجد تعريفاً مماثلاً له وهو تعريف **الجرجاني**، يقول: " هو علم يبحث فيه عن ذات الله وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام⁴ " وهو بذلك أهمل الغاية التي يسعى علم الكلام إلى تحقيقها، وغير بعيد عنهما تعريف **سيف الدين الآمدي** 631 الذي يذهب إلى أن " أشرف العلوم إنما هو العلم الملقب بعلم الكلام، الباحث عن ذات واجب الوجود وصفاته، وأفعاله ومتعلقاته، إذ شرف كل علم إنما هو تابع لشرف موضوعه الباحث عن أحواله العارضة لذاته⁵."

وهناك تعريف آخر وهو تعريف **محمد عبده** يقول هو: علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفاته، وما يجب أن ينفي عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم⁽⁶⁾.

وما نلاحظه عن هذا التعريف أنه يعرفه باعتبار مواضيعه، ولكنه أغفل جانباً مهماً في هذه المواضيع وهي مبحث السمعيات⁽⁷⁾. ومن جملة هذه التعريفات التي انقسمت في تعريف علم الكلام إلى مهمته في الدفاع ونصرة العقيدة، أو بالنظر إلى موضوعاته، نجد هناك تعريفات تحاول أن تجمع بين الموضوع والغاية سنقتصر على لأحدها وهو تعريف **الباجوري** الذي يرى أنه " علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية مكتسبة من أدلتها اليقينية القرآن والسنة الصحيحة لإقامة الحجج والبراهين العقلية والنقلية ورد الشبهات عن الإسلام⁸ ". وهو في نظرنا تعريف أصاب إلى حد ما في استيعاب الموضوع والغاية من علم الكلام.

ص 428.

¹ أبو نصر الفرابي، إحصاء العلوم، تح عثمان أمين، القاهرة، مكتبة أنجلو الأمريكية، ط3، 1968م، ص 131.

² عضد الدين الإيجي، المواقف في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت، دط، د. ت، ص ٧.

³ سعد الدين الفتازاني: شرح المقاصد في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط 2، 1419هـ - 1998م، ص 163.

⁴ الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، دط، 2004م، ص 458.

⁵ سيف الدين الآمدي، غاية المرام في علم الكلام، تح حسن محمود عبد اللطيف، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1391-م، 1971 م، ص 4.

⁶ محمد عبده، رسالة التوحيد ط1، الجزائر، موفم للنشر 1989م، ص 5.

⁷ عبد الوهاب فرحات، محاضرات في علم العقائد، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2008-2009م، ص 10.

⁸ إبراهيم الباجوري، تحفة المريد على جوهرة التوحيد، تح علي جمعة محمد الشافعي، دار السلام ط1، 1422هـ - 2002م، ص 38.

المطلب الثاني: نظرة الأمير إلى علم الكلام من خلال كتابيه المقرض الحاد وذكرى العاقل وتنبيه الغافل.

يبدو أن الحياة العلمية التي عاشها الأمير عبد القادر خصوصا بعد دراسته لأعمال أفلاطون، وفيتاغورس، وأرسطو، وكذا دراسته لكتابات مشاهير المؤلفين من عهود الخلافة العربية في التاريخ القديم والحديث، وفي الفلسفة، واللغة، والفلك، والجغرافية، بل حتى عن الطب، قد كونت لنا هذه الشخصية متكاملة المعارف¹، كما تؤكد لنا اهتمام الأمير بعلم الكلام منذ مراحل زمنية متقدمة من حياته، بالتالي يمكننا أن نعتبر أن أولى بوادر كتابة الأمير في علم الكلام تظهر بجلاء في كتابيه " المقرض الحاد وذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، حيث نجد أن هذا الأخير ينتهج طريقة المتكلمين في معالجته للقضايا والمسائل الكلامية المتنوعة، كما نلاحظ أن الأمير قد تأثر بشخصيات كلامية كثيرة، كان كثيرا ما يستدل بها.

ويذهب بعض الباحثين إلى أنه من أهم الأسباب التي جعلت الأمير يختار الكتابة في موضوع الفلسفة هو ميله لمباحثها والتي اكتسبها من مطالعته الكثيرة لكتب المتصوفة في العصر الموحد، وقد زاد هذا الميل فيه عند احتكاكه ببعض العلماء في فرنسا خلال مدة اعتقاله بسجن الأمبواز.²

وسنرجع إلى ذكر بعض ما احتوته كل من الرسالتين بإيجاز، وذلك كي نستخرج موقف الأمير من علم الكلام.

أ- في المقرض الحاد

يعود السبب في تأليف الأمير لهذه الرسالة هو تجرأ أحد المسيحيين على الدين الإسلامي وتطاوله عليه، ويروي الأمير هذه الحادثة في مقدمة كتابه، حيث يقول: "لإني في أيام إقامتنا في أمبواز عند الدولة الفرنسية الفخيمة تكلم أحد رؤساء الدين المسيحي في الإسلام وقال أن الغدر وعدم الوفاء فيه غير قبيح ولا منهي عنه فسمعه بعض من له محبة ورغبة في إظهار الحق فجاء إلي وألح في الطلب على أن أضع في هذا الأمر رسالة لتتضمن بيان ما في شرع الإسلام مما يكذب قوله وينبذ سخفه...، والرسالة سميتها بالمقرض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد".³

أما بالنسبة لموضوعات الكتاب، فقد استهل الأمير كتابه بالتذكير بفضل العقل ومراتب النظر، حيث يبينه الأمير في هذه الجزئية على كمال شرف الانسان بالعقل وتمييزه عن الحيوان، فبه تدرك العلوم ويعرف طريق الحق ويزول حجاب الشك وتنكشف له حقائق الأمور.⁴

¹ هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، د.ط، د.ت، ص 47.

² رابح بونار، الأمير عبد القادر حياته وأدبه، مجلة آمال، العدد 68، جويلية 1970م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 22-23. انظر أيضا مقال لعبد القادر شرشار بعنوان شخصية الأمير عبد القادر من منظور آخر ترجمة أشهر مؤلفات الأمير عبد القادر من قبل الباحث الفرنسي جوستاف دوجا، مجلة التراث العربي، سوريا، مجلد 23 العدد 90، 2003 م ص 178.

³ محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية، غرزوي وجاويش، الاسكندرية، د ط، 1903م، ج2، ص 37-38.

⁴ الأمير عبد القادر الجزائري، المقرض الحاد لقطع لسان منتقض دين الإسلام، تح عمار طالبي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 9.

ثم يفصل بعدها في معاني العقل مبينا وموضحا شرف النظر العقلي وخصوصيته مقارنة بالنظر البصري ذلك أن نور العقل أكمل من نور البصر، والسبب في ذلك حسبما يرى يرجع إلى أن العقل يدرك نفسه ويدرك إدراكه ويدرك آتته في الإدراك وهي القلب أو الدماغ، بخلاف قوة العين التي لا تدرك نفسها ولا تدرك إدراكها¹.

ثم يفرق بين الإدراك العقلي المنتج والموصل لاكتساب العلوم والمعارف الأخرى بواسطة التركيب والإدراك الحسي القاصر عن الإنتاج².

وهو في كل هذا يسعى للبرهنة على شرف العقل الذي يدرك جميع الموجودات والمعدومات والماهيات التي هي معروضات الموجودات والمعدومات، ويمضي أيضا إلى بيان أغلاط كل من البصر والحس في إدراكهما الجزئي للأمور بخلاف إدراك العقل الكلي³.

كما يذهب الأمير إلى أن التفاضل في العقول إنما يرجع إلى تفاوت في نور العقول ويشبه نور العقل بنور النار إحداها أن نور النار ممزوج بدخان يسود الثوب ويجفف الدماغ، وكذلك نور العقل الممزوج بدخان الشبهات، والثاني أن نور السراج ينطفئ بأدنى ريح فكذلك نور العقل ينطفئ بأدنى شبهة⁴.

أما بخصوص الباب الأول من كتابه، فيدرس فيه مسألة إثبات الألوهية وكيفية معرفة الله تعالى، وطريق الناس في معرفة الله، موردا قول فخر الدين الرازي حول انقسام الناس في ذلك إلى طريقتين، الأولى طريقة أصحاب الرياضة والمجاهدة. والثاني أصحاب النظر والاستدلال، ويعترف بأن الطريق الأول طريق عجيب أكيد قاهر، فإن الإنسان إذا قام بتصفية قلبه عن ذكر غير الله وداوم بلسان جسده ولسان روحه على ذكر الله وقع في قلبه نور وحالة قاهرة وقوة عالية، وتتجلى لروحه أنوار عالية علوية والأسرار الإلهية، وهي مقامات ما لم يصل الإنسان إليها لا يمكنه⁵.

ويدرس في الباب الثاني مسألة النبوة مع الرسالة، ويحاول في هذه الجزئية سلك طريقة المتكلمين في إثبات النبوة عبر مقدمات عقلية، حيث يقول في نهاية المقدمة الرابعة: "فعلى هذا ثبت أنه لا بد أن يحصل في كل دور شخص واحد هو أفضلهم وأكملهم في القدرة النظرية والعلمية وهو الرسول"⁶.

والأمير في هذه المسائل يعتمد أسلوب الأشاعرة في التحليل، وهو في ذلك يستشهد بأقوال الرازي والجويني وعضد الدين الإيجي، وغيرهم من أئمة الكلام، ملخصا آراءهم، وسالكا منهجهم التحليلي المنطقي، كما نجد أنه قل ما يعترض على قول ما لهم دون الرجوع إلى مصادرهم وأقوالهم في ذلك.

وهذا التأثير الواضح يملئ البناء الفكري ويسقي المنبع العقلي للأمير، ما يجعل كتابه هذا مقراضا حادا يقطع كل شبهة وكل دعوى ليبطلها من أساسها.

¹ المصدر نفسه، ص 14.

² المصدر نفسه، ص 15.

³ المصدر نفسه، ص 18.

⁴ الأمير عبد القادر الجزائري، المقرض الحاد، مصدر سابق، ص 18.

⁵ المصدر نفسه، 41-42.

⁶ المصدر نفسه، ص 161.

2 - في كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل

تعتبر هذه الرسالة إسهاما من الأمير عبد القادر وإضافة معتبرة لجهود من قبله من العلماء في المباحث والمواضيع الفلسفية ، وقد قام الأمير بكتابتها بطلب من المجمع العلمي الفرنسي

وقد صرح بذلك في بداية مقدمة كتابه هذا، وكان قد فرغ من كتابتها في 14 رمضان 1271هـ .

أما عن فحوى الرسالة فهي تحوي مقدمة وثلاث أبواب وخاتمة، وفي كل باب فصل، وتنبيه، وخاتمة ، وهي لا تختلف كثيرا عن رسالة المقرض، وتحوي الرسالة مدخلا تمهيديا في ضرورة النظر يبدأ فيها الأمير كتابه بمقدمة عقلية لأهمية النظر والاستدلال في العلوم ككل وينهج بذلك منهج المتكلمين الأوائل في براعة استهلالهم لمواضيع علم الكلام، كما ينبه الأمير في هذا الصدد إلى أهمية المنهج في أخذ الحق، ويذهب إلى أن الالتباس الذي قد يقع فيه بعض المعاندين إنما هو راجع إلى اعتقاداتهم وأحكامهم المسبقة للأمور خصوصا ما تعلق منها بأمور الاعتقاد، لذا فالأصح أن يعرف الرجال بالحق وليس العكس، حيث يقول رحمه الله: " إن نسب كلام إلى قائل حسن اعتقادهم فيه قبلوه وإن كان القول باطلا، وإن نسب القول إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقا، ودائما يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق، وهذا غاية الجهل والخسران"¹

وعلى هذا نجد الأمير في هذه الجزئية ينبذ التقليد الأعمى ويحاول أن يصنف الناس في النظر إلى قسمين:

"قسم عالم مسعد لنفسه ولغيره، وهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد ودعا الناس إلى معرفة الحق بالدليل لا بأن يقلدوه، وقسم آخر مهلك لنفسه ومهلك لغيره، وهو الذي قلد آباءه وأجداده دون نظر أو تحري خصوصا في الاعتقادات، وقيس على ذلك تقليد الكتب بل يجعله الأولى بالذم حيث يقول: " وإذا كان تقليد الرجال مذموما غير مرضي في الاعتقادات، فتقليد الكتب أولى وأحرى بالذم، وإن بحيمة تقاد أفضل من مقلد ينقاد "².

- الحاجة الماسة إلى تضافر العلوم والمناهج من أجل الوصول إلى الحقيقة

يرجع الأمير أسباب اختلاف العلماء والمتدينين في الغالب الأعم إلى قصر النظر والتعمق في حقائق الأشياء، وكذلك إلى نقص الإحاطة بالعلوم ومعرفة كيف تتضافر هذه المعارف كي تنتج لنا علما آخر يقول: " فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تصاد إلا بشبكة العلوم الحاصلة بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث ... والجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج، هو المانع من العلم "³.

ويضرب الأمير لذلك عدة أمثلة منها: " أن الانسان إذا أراد أن يرى قفاه بمرآة فإنه لا يستطيع أن يحقق ذلك إلا بالاستعانة بمرآة أخرى تنصب وراء القفا بحيث تحقق لنا هذه الازدواجية في العوامل نتائج جديدة، وكذلك بالنسبة لاصطياد العلوم "⁴.

ومنه فإن المنهج الذي يرتضيه الأمير هو أن يكون العالم محيطا بعلوم عصره المختلفة، ويساهم في تضافرها من أجل الوصول إلى الغاية المنشودة، ونحن هنا نجد يقف موقفا حكيما مقارنة بالمفكرين السابقين له، والذين ذموا كل محاولات الاشتغال بالعلوم

¹ الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تح عمار طالي، دار القصبة، 2005م ص13.

² المصدر نفسه، ص16.

³ الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مصدر سابق، ص 16.

⁴ المصدر نفسه، ص 17.

الأخرى عدى الدينية، ومن هذا الصدد يمكننا أن نعتبر كلام الأمير دعوة صريحة للتجديد انطلاقاً من تظافر نتائج العلوم بعضها ببعض.

- عنايته في بداية الباب الأول من كتابه بذكر فضل العلم والعلماء يؤكد الأمير على تشريف الإنسان بالخاصية التي ميزه الله تعالى بها دون غيره من المخلوقات ألا وهي العلم الذي إن وجد وتحقق حصل كماله وإن غاب واختفى بان نقصانه يقول: "إذ كمال كل شيء إنما يكون بظهور خاصيته، التي امتاز بها عن غيره، ونقصانه هو خفاء تلك الخاصية فبقدر ظهور تلك الخاصية، يطلق عليه اسم الكامل، وبحسب سترها فيه يخص باسم الناقص"¹.

كما يرى أن لذة العلم هي أشرف اللذات وأقلها وجوداً، وأما سبب شرفها هو أنها لازمة لا تزول أبداً ولا تمل، فالطعام يشبع منه وشهوة النكاح تستثقل بعد الفروج منها، أما العلم والحكمة فلا تمل أبداً، وأما قلة وجودها فقلة أهلها المشتغلين بها على الحقيقة، وكثرة المنتسبين إليها ولرسمها².

وإنما لذة العلم حسبه لا يستلذها إلا صاحب قلب سليم صحيح، لا صاحب مرض وعلة،

ومن يكن ذا فم مر مريض *** يجد به مرا الماء الزلالا

كما يذهب إلى أن غاية العلم أنه مطلوب لذاته وهنا يكمن شرفه ومنفعته ولذته³.

وبعد هذا يسترسل في تعريفه للعقل وبيان فضيلته ومنزلته، انطلاقاً من دلائل وبراهين عقلية استند إليها في عرضه لقضاياها سالكا مسلك المتكلمين في ذلك، فقوة العقل هي إحدى القوى الأربع في الإنسان التي هي العقل والقوة والشجاعة والعدل، والتي إذا اعتدلت في الإنسان يصير كاملاً، ومن اعتدال قوة العقل يحصل للإنسان حسن التدبير وجودة الذهن، وثقابة الرأي، إصابة الظن، والتفطن لدقائق الأمور، والافراط المذموم فيه يحصل لنا ذميم الصفات فالجنون إنما هو اختلال القوى العقلية المميزة بين الأمور الحسنة والقبیحة⁴.

ويفرق الأمير على هذا المنوال بين العلوم المذمومة والمحمودة، يقول: "وجميع العلوم الصناعية والنظرية تفيد عقلاً، وإنما يذم بعض العلوم لأحد أسباب، إما لكونه مؤدياً على ضرر، إما بصاحبه، أو بغيره، كالسحر والطلسمات... وإما لكون المتعلم يقصد بالعلم فوق غايته كمن يقصد بعلم النجم الاطلاع على المغيبات، والحوادث الآتية"⁵ وهذا هو فاسد العلم.

وبذلك فإن الغاية من الاشتغال بالعلم إنما هو النفع الذي يرجع به على صاحبه في الدنيا والآخرة وكل ما كان ضرره على صاحبه ومخالفاً للدين فهو فاسد والاشتغال به مذموم.

- يدرس الأمير في الباب الثاني من الكتاب مسألة إثبات العلم الشرعي ومنزلة العلوم العقلية

¹ المصدر نفسه، ص 19 - 20.

² المصدر نفسه، ص 21 - 22.

³ الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبية الغافل، مصدر سابق، ص 24.

⁴ المصدر نفسه، ص 35.

⁵ المصدر نفسه، ص 51.

يؤكد الأمير عبد القادر على أنه مهما بلغ الانسان من العلم والمعرفة فثمة علوم لا يمكنه الوصول إليها أو الاطلاع عليها، فلا يهتدي الى الاطلاع عليها إلا بتصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد إليهم لذا فإنه لا غنى للعقل عن العلوم الشرعية ، ولا غنى بها عن العقل الذي هو أداة فهم النصوص، "فالذي يدعو الناس إلى التقليد المحض مع عزل العقل جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن العلوم الشرعية مغرور"¹.

وينصح الأمير في ذات السياق بضرورة الجمع بين العلوم العقلية والعلوم الشرعية، يقول: " فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يتضرر بالغذاء إذا فاتته الدواء، وقلوب الخلق كلها مرضى ولا علاج لها إلا بالأدوية التي ركبها الأنبياء وهي وظائف العبادات، فمن اكتفى بالعلوم العقلية تضرر بها، كما يتضرر المريض بالغذاء ، كما وقع لبعض الناس فأنهم قالوا الانسان إذا حصل له المعقول ، وأثبت للعالم صانعا ، وصل إلى الكمال المطلق ، فتكون سعادته على قدر علمه، وشقاوته على قدر جهله ، وعقله هو الذي يوصله إلى هذه السعادة "²

كما يؤكد أيضا على عدم تناقض وتنافر العلوم الشرعية والعقلية، وعلى أن جميع ما أخبر به الأنبياء ونُحت عنه أقوال لا تخالف العقول، ولكن فيها أمور لا يهتدي إليها العقل أولا، فإذا هدي إليه عرفه وأذعن له، ومثال ذلك أن يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في العلاج يستبعدا من لا يعرفه، ومثل ذلك الأنبياء فلا يمكن أن يصل العقل إلى علومهم إلا بتعريفهم، ويلزم العاقل التسليم لهم، بعد النظر في صدقهم.³

– مسألة إثبات النبوة ومنهج الأمير في عرضها

يرى الأمير أن معرفة النبي لا تتم إلا بمعرفة أحواله، ولا يتم ذلك إلا بالمشاهدة وإما بالتسامع والتواتر، مركزا على ضرورة النبوة بالنسبة للبشر، خصوصا وأن الأحكام التي يثبتها الأنبياء عن عالم الغيب هي نور الهادي للإنسان، وكل ما يشرعه الأنبياء للإنسانية في الحياة الفردية أو الاجتماعية هو ما تتطلبه العقول السليمة وإن السعادة الحقة لا تحصل بالنظر وحدة بل بالنظر والعمل معا.⁴

– العلم وعلاقته بالدين

يلقي الأمير في ختام مسألة النبوة نظرة على الديانات الأخرى وموضوعاتها، مركزا على ضرورة الاستفادة من العلماء الآخرين المتضلعين في العلوم الطبيعية واستخدام ما توصلوا إليه من حقائق لخدمة الدين حيث يقول الأمير في هذا الصدد: " ينبغي لرجال الدين في كل مكان أن يفسحوا مجال البحث لعلماء الطبيعة والفلك ليواصلوا أبحاثهم اقرارا ويزودونا بنتائج بحثهم التي لم يؤيدها الدين فهو لا يعارضها لأن موضوعه غير موضوعها، ولأن وجهة بحثه لبعض مظاهر الطبيعة غير وجهة بحثا "⁵.

هذا ونجده يحذر من خطورة إدخال الدين في أمور هو في غنى عنها، كما قد أشار إلى هذا الواقع المقيد لروح التجديد، حيث أورد مقطعا للغزالي من كتابه تهافت الفلاسفة تحدث فيه عن صلة الدين بالحقائق العلمية ككسوف الشمس وخسوف القمر

¹ المصدر نفسه، ص 55.

² الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مصدر سابق، ص 50.

³ المصدر نفسه، ص 60

⁴ رابع بونار ، الأمير عبد القادر حياته وأدبه ، مرجع سابق ، ص 26.

⁵ الأمير عبد القادر ، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ، مصدر سابق، ص 56.

وتفسير تلك الظاهرة علمياً، حيث لفت الغزالي النظر إلى أن هناك من الظواهر التي جلاها العلم والمقاييس الهندسية مالا يجمع بالعلماء المسلمين أن يخوضوا فيها حتى لا يجنوا على الدين بما يكون لهم من فهم لا يتناسب والحقيقة الموضوعية¹.

كانت هذه أهم المواضيع التي ناقشها الأمير عبد القادر في كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ونحن نلاحظ أن الأمير ركز في مواطن عديدة من كلامه إلى ضرورة تضلع العالم المسلم واطلاعه على العلوم الأخرى لعصره، سواء كانت دينية أو لها علاقة بعلوم الطبيعة والفلك، وهذا في رأيه يفسح المجال للاستفادة مما حققته الإنسانية جمعاء من تقدم وازدهار في شتى المجالات والميادين الحياتية، ولعل رغبة الأمير في دمج العلوم لم تكن مجرد خبطة عشوائية، فالمتأمل لحياة الأمير وسيرته سيتوقف بدون شك أمام الإعجاب الذي أبداه الأمير إزاء التطور الذي وصل إليه الغرب، وما لفت الأمير أيضاً هو عدم تناقض العلوم مع ما أتى به الدين، لذا فهذه النظرة التكاملية هي خلاصة ما يمكن استخلاصه من كتاب أميرنا عبد القادر.

كما نلاحظ أن هنالك اختلافاً طفيفاً بينها وبين رسالة المقرض الحاد، لكن البارز هو كثرة النقل الحرفي فيها، وهذا ما علق عليه أبو القاسم سعد الله حين قال: "أما إنتاجه الآخر فتغلب عليه روح النقل، فكتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل " مليء بالنقل الحرفي من إحياء علوم الدين "².

ولعل ما ذهب إليه أبو القاسم سعد الله من كثرة المنقولات والاقتباسات صحيح ولا غبار عليه، فنحن نجد أن الأمير تأثر أياً تأثر بالغزالي بمجدد المائة الخامسة، وبشخصيات كلامية أخرى، وهذه المنقولات بالنسبة لنا تؤكد مدى اهتمام شخصية مثل الأمير بالغزالي ومؤلفاته خصوصاً في الفترة الحرجة التي عاش بها الأمير، وتبرز الأثر الذي تركه كتب الغزالي على نفوس وعقول قارئيه، كما تعطينا بعداً آخر في فهم توجه فكر الأمير في المنحى الصوفي المعتدل الذي تشربه قبل دخوله ومباشرة قراءة كتب ابن عربي وغيره من الشخصيات الصوفية الأخرى.

كما تؤكد لنا تشرب الأمير عبد القادر لعلم الكلام وهضمه لمسائله، وما التأليف والتصنيف على منوالهم ووفق مناهجهم إلا دلالة على الموقف الإيجابي الذي اتخذته الأمير حول هذا العلم في بداية مشواره التألّفي. لكن السؤال المطروح هو: هل سيحافظ الأمير على موقفه هذا في مصنفه "المواقف"؟، والذي يعتبر آخر كتاب ألفه هذا الشيخ والعالم الجليل.

المطلب الثالث: نظرة الأمير إلى علم الكلام من خلال كتابه "المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف"

يبدو أن القارئ لمؤلف الأمير "المواقف"، سيجد اختلافاً كبيراً في مواضيع هذا الكتاب وأسلوبه أيضاً، فالكتاب يميل في طروحاته ومنهجه إلى أسلوب صوفي إشاري، يخالف ما ألفه الأمير في بدايات حياته، كما أنه يقدم نظرة وموقفاً مبايناً له من

¹ عشراقي سليمان: الأمير عبد القادر المفكر، مساجلات في قضايا اللغة والمعرفة وفقه الخطاب القرآني، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران - الجزائر، ط2، 2004م، ص 37.

² هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 28.

العلوم العقلية، ونحن نتساءل ما الذي دعا صاحب المقراض، وذكرى العاقل وتنبيه الغافل لتغيير موقفه من علم الكلام، وهل يمكن أن نعتبر كتابه هذا تعبيراً عن تصحيح لموقف الأمير الإيجابي حول علم الكلام؟ .

-حيرة المتكلمين

نجد أن الأمير يتحدث في الجزء الأول من كتابه المواقف عن الحيرة التي وقع فيها المتكلمون جراء غوصهم في مباحث علم الكلام، والتي لم تزددهم إلا حيرة وتشكيكا وتخليطاً في ما وصلوا إليه من نتائج، إذ نجده يفسر قوله تعالى: "الضالين" بمعنى الحائرين وهؤلاء هم الناظرون في ذات الله تعالى بعقولهم، ومنهم الفلاسفة والمتكلمون الذين غلب عليهم التقلب والتشكيك، فلم يجدوا ضالتهم حوله وبقوا حائرين، يقول الأمير في هذا الصدد: "...من حكيم وفيلسوف ومتكلم، فإنهم ضالون حائرون، في كل يوم، بل في كل ساعة، يرمون وينقضون ويننون ويهدمون ويجزمون بالأمر بعد البحث الشديد والجهد الجهد، ثم يشككون في جزمهم، ثم يجزمون بشكهم، ثم يشككون في شكهم... وهكذا حالهم دائماً بين إقبال وإدبار، وهذه حالة الحائر الضال" ¹.

وهذا التخليط والتشكيك هو ما جعل العديد من علماء الكلام، الذين لم يجدوا ضالتهم المنشودة في علم الكلام بالرغم من اضطلاعهم وتمكنهم الواسع فيه وتبحرهم في العقائد ومجادلة الخصوم والرد عليهم بمختلف المؤلفات والتصانيف، يرجعون عنه، وذكر الأمير أمثلة عنهم على رأسهم زعيم المتكلمين الإمام الجويني عليه رحمة الله، وكيف فضل دين العجائز في آخر سعيه، ونقل عنه ما نصه: "قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً في خمسين ألفاً، وخليت أهل الإسلام وإسلامهم وعلومهم، وخضت في الذي نهي الشرع عنه، وركبت البحر الخضم... كل هذا في طلب الحق، وهروبا من التقليد والآل رجعت إلى كلمة: "عليكم بدين العجائز" فالويل لابن الجويني إن لم يدركه لطف الله".

كما ذكر حادثة مشابهة عند الإمام الرازي الذي قال عند موته، حيث قال: "اللهم إيماناً كإيمان العجائز وأنشد بيتاً متأسفاً على ما فاتته يقول فيه:

نهاية إقدام العقول عقال *** وأكثر سعي العالمين ضلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا *** سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا.

وقول الشهرستاني في كتابه نهاية العقول

لعمري لقد طفت المعاهد كلها *** وسرحت طريقي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر *** على ذقنه أو قارعا سن نادم ²

وتعجب الأمير من حال فحول المتكلمين وحيرتهم وما آلت إليه أوضاعهم، كما تساءل عن حال من هم دونهم؟ ³

¹ الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، تح عبد الباقي مفتاح، دار الهدى

للطباعة والنشر والتوزيع، ج 1، د. ط، 2007م، ص 118-119.

² المصدر نفسه، ص 119.

³ المصدر نفسه، ص 119.

طرق تحصيل العلم

ولأن الأمير نحى منحاً آخر في كتابه المواقف، فإنه غير نظرتة في طريقة تحصيل العلم، حيث يقول:

" ثم اعلم أن طرق تحصيل العلم ثلاثة، الأولى أن يكون الحق هو المعلم، الثانية أن يكون النظر الفكري هو المعلم، الثالثة أن يكون المعلم مخلوقاً مثل المتعلم، فصاحب الالتقاء الإلهي ملحق بمعلمه ومقلده لحق به، وصاحب النظر العقلي ملحق بمعلمه، ومقلده لاحق به، وقد أجمع أهل الله أن كل ما ينتجه النظر والفكر فهو مدخول يقبل إيراد الشبه عليه كما يدل على ذلك اختلاف المقالات في الله - تعالى من الناظرين بعقولهم، واتفاق أصحاب التجلي الذين معلمهم الله من نبي ورسول وولي¹.

لذا فهو يرى أن أفضل علم هو علم التصوف أو التجليات يقول: "وأما العلم الحاصل عن النظر العقلي بالأدلة الفكرية، فمثل هذا لا يسمى عند القوم علماً لتطرق الشبه على صاحبه فينقلب الدليل عنده شبهة، وقد تكون الشبهة عنده دليلاً، وإن وافق العلم، فالعلم الحقيقي باسم العلم مالا يقبل صاحبه الشبه ولا يطرأ عليه تغيير، وليس ذلك إلا علم الأذواق الحاصل بالتجليات"².

ونحن نجد أن الأمير كان موافقاً لابن عربي في نظرتة لقصور الأدلة العقلية، وهذا الأخير يذهب إلى القول بأن: "الشبهة تأتي في صورة البرهان أحياناً... ولا يزال صاحب هذا الطريق في حيرة إلى الموت... فإنه ما من دليل إلا وعليه شبهة ودخل، لا تتسع عالم الخيال. وهذا ما جعل أهل الله يرون في مقام الفكر خطراً، لأنه لا يعطى العصمة، وجعلهم يطلبون طريقاً آخر للمعرفة، وهو التصفية التي تجلب السكينة لا الحيرة"³.

وهذا القصور هو الذي جعل ابن عربي يرفض أن يكون المقصود من هذا العلم تحصيل العقيدة، ولكنه رغم ذلك لا ينكر شرفه، يقول: "وعلم الكلام مع شرفه لا يحتاج إليه أكثر الناس... ولو مات الإنسان وهو لا يعرف اصطلاح القائلين بعلم النظر مثل الجوهر والعرض والجسم والجسماني، والروح والروحاني لا يسأله الله تعالى عن ذلك، وإنما يسأل الله الناس عما أوجب عليهم من التكليف خاصة والله يرزقنا الحياء منه"⁴.

ومنه فإن الأمير يرى أن العارف الحقيقي لا يرتوي أبداً من نفحات العلوم الإلهية الحاصلة له عن طريق التجلي الإلهي، يقول: "إن العارف في كل زمان فرد يطلب الزيادة من العلم بالله، فهو كشارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً، (كالحوت ظمآن في البحر فمه) وليس غرض القوم إلا العلم المتعلق بالله الحاصل من التجليات الإلهية لا العلم الحاصل من طريق العقل والنظر، فإن ذلك ليس بعلم عند الطائفة العلية لما يطرأ عليه من الشبه والشكوك فإن العلم الصحيح لا يشمل النقيض"⁵.

¹ الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف تح عبد الباقي مفتاح، مصدر سابق، ج 1، ص 195.

² الأمير عبد القادر، المواقف العرفانية، تح عمار طالبي ومحفوظ سماتي وآخرون، ج 1، ص 341.

³ ابن عربي، الفتوحات المكية، ابن عربي، الفتوحات المكية، تح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط 1، 1999م، بيروت - لبنان، ج 7، 273.

⁴ ابن عربي، الفتوحات المكية، تح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط 1، 1999م، بيروت - لبنان، ج 1، ص 61.

⁵ المصدر نفسه، ج 3، ص 223.

أيهما أفضل علم الكلام أم التصوف؟

من خلال ما أورده الأمير من ذم لحال المتكلمين وتذبذبهم وعدم ثباتهم على موقف واحد، وهو ما جعل بعضهم يلعن الآخر، ويرجع سبب اختلافهم إلى حيرتهم الشديدة، فهم الناظرون بعقولهم في ذات الله، لذا فإن أفضل طريق حسبه هو طريق العارفين بالله، ويقصد بهم الصوفية أهل الطريق، حيث يقول ما نصه: "...ولهذا ترى طوائف المتكلمين يلعن بعضهم بعضا، ويكفر بعضهم بعضا بخلاف أهل الله - تعالى - العارفين به فإن كلمتهم واحدة في توحيد الحق وأمرهم جميع، كما قال تعالى: "أن أقمو الدين ولا تفرقوا فيه" ¹.

ونحن نقف أمام إشكالية يقول صاحبها أن الحيرة قد تحصل للمتكلم كما تحصل عند العارف، فتكون الحيرة حقيقة لا مفر منها، لكن الأمير يحاول الإجابة عن هذا السؤال بالتفريق بين حيرة العارف بالله وحيرة المتكلم، والتباين المطلق بينهما، يقول: "وأما الحيرة الحاصلة للعارفين فما هي الحيرة الحاصلة للمتكلمين، وإنما هي حيرة أخرى حاصلة من اختلاف التحليلات وسرعتها وتنوعاتها وتناقضها. فلا يهتدون إليها ولا يعرفون بما يحكمون عليها. فهي حيرة علم لا حيرة جهل، فلا تقاس الملائكة بالحدادين" ².

كما يدرج حقيقة أن من المتكلمين من قد يقع في مزالق البحث في الذات الإلهية، والتي هي من الأمور التي نهانا الشرع أن نبحث فيها، وكل خوض في ذلك هو إساءة أدب مع الله سبحانه وتعالى، يقول الأمير: "وما تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيها إلا كذلك، قال: "تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته" وآلاؤه هي آثار أسمائه الفعلية، وهي أحد أقسام أسماء الألوهة وكل من تكلم في الذات بأنها ليست جوهرًا مثلاً، ولا عرضاً وكذا ولا كذا من المتكلمين فقد أساء الأدب، وتعدى الحد، وإن جلت رتبته في العلم" ³.

لقد ذهب المتكلمون غير مذهب الصوفية حسب الأمير، إلى حصر المعية بالعلم لتنزيه الذات عن المخلوقات. وما يصدق في التنزيه للذات يصدق في التنزيه على الصفات، وإن كان القصد من تنزيه الذات "الأحادية" التي لا تتجزأ ولا تتبعض، عن تعدد الموجودات، فإن العلم كذلك "حقيقة واحدة لا يتجزأ ولا يتبعض" والعالم لا يجهل ⁴ ما به يعلم، وإن كان بالمعلوم أجهل. وإذا قال العارفون أن المعية بالعلم فليس قصدهم قصد المتكلمين، وإنما يريدون بذلك إيهام الأمر على المخالفين. ⁵

كما يشير الأمير إلى اختلاف توحيد الصوفية عن التوحيد العقلي عند المتكلمين الذين وقعوا حسبه في خلط وتيه، حيث إن قصدوا الذات البحث فهي لا تعرف إثباتاً ونفيًا، لأن المطلق بالإطلاق الحقيقي، لا يصح الحكم عليه بشيء. "أما إن كان قصدهم الألوهية" فهي لا حجر عليها ولا حصر، ولا تقييد لها، لأنها تجمع الضدين، مطلقة ومقيدة، مطلقة في مظاهرها التي

¹ الشورى 42-11

² الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، تح عبد الباقي مفتاح، مصدر سابق، ج 1، ص 119.

³ الأمير عبد القادر، المواقف العرفانية، تح عمار طالبي ومحفوظ سماتي وآخرون، ج 2، ص 259.

⁴ منير بهادي، المخیال والتاریخ مقارنة فلسفية لتجربة الوجود عند الأمير عبد القادر الجزائري، الوسام العربي، عناية، ط 1، 2018م، ص 82.

⁵ المصدر نفسه، ص 83.

لا تحصر ولا تحد، وتعينها بالصور الحسية والعقلية والخيالية . وتحولها فيها، وجمعها بين الأولية والآخرة، والظاهرية والباطنية، وكونه في الأرض السابعة، ومستوى على العرش، وموجود في كل مكان ومع كل مخلوق وقائم على كل نفس...¹

لقد كان الأمير راغباً في تأليف كتاب في علم الكلام يبين فيه غلط المتكلمين، حيث يقول: "... وقد خطر لي إن كان في العمر سعة تأليف كتاب أجمع فيه ما وصل إليه علمي من غلطات الحكماء والمتكلمين أسميه "الإعلام بأغاليط الأعلام"².

ولكن هذه الأقوال لا تعني بالضرورة رفض الأمير لكل ما هو عقلي، فهذا تعسف بحت، وسوء فهم لكلامه رضي الله عنه، والحقيقة هي أن الأمير لم يخرج عن طريق المتكلمين مطلقاً، بل نجده يأخذ بأقوالهم في العديد من المسائل، ومن هذه المسائل، مسألة كلام الله، فهو يسلك مسلك الأشاعرة في التفريق بين الكلام النفسي والكلام اللفظي، لكن بأسلوب صوفي إشاري حيث يقول: "وكما أن ظهور الحق تعالى بالصور حادث، فكذلك كلماته، لأن كلماته أفعاله، وأفعاله حادثه، وأعني بكلماته: مخلوقاته المخاطبة بـ"كن" لا نفس الكلام الذي هو صفته، وصفاته تعالى إذا نسبت إلى مرتبة الإطلاق، تكون مطلقة، فيعلق علمه وكلامه بالواجب والممكن والمستحيل، وتتعلق قدرته وإرادته بكل ممكن، وسمعه وبصره بكل مستعد، لأنه يرى ويسمع، وإذا نسبت إلى مراتب التقييد لا تظهر إلا مقيدة، فيتعلق العلم ببعض المعلومات والقدرة ببعض المقدورات وقس على هذا"³.

ولأن الأمير هو تلميذ ابن عربي الروحي، الذي تتلمذ على أغلب ما كتبه، فإننا نجده موافقاً له وسائراً على منواله في حده من قدرة العقل على مجازة المعرفة الكشفية، فابن عربي على الرغم من نقده للمعرفة العقلية إلا أنه لا يحط من قدر العقل بل يحد وظيفته وعلاقته بالكشف الصوفي⁴.

فهو ينحو نحوه في هذا الموقف في مسألة كلام الله، ويبدو أن هذه الرؤية هي ما عبر عنها الباحث نصر حامد أبو زيد في كتابه هكذا تكلم ابن عربي، والذي يرى أن ابن عربي طور في أسلوبه في عرضه لآراء الأشاعرة خصوصاً في مسألة كلام الله عز وجل، حيث يقول: "يبدو أن المتصوفة قد طوروا مفهوم الكلام الإلهي عند الأشاعرة، الذين ميزوا في بنية الخطاب الإلهي بين الكلام الأزلي القديم الذي هو صفة الذات الإلهية وبين التلاوة الإنسانية، التي تتصف بالحدوث، حيث يطور المتصوفة المفهوم المذكور فيميزون بين البعد الإلهي للغة الخطاب وبين بعدها الإنساني"⁵.

-مسألة أفعال العباد

يقول الأمير: "وقد ورد في الكتاب العزيز والسنة النبوية نسبة الفعل إلى الله وحده، ونسبته إلى الخلق وحده، ونسبته إلى الله بالخلق، ونسبته إلى الخلق بالله، فلهذا كثر اللفظ، وانتشر الاختلاف في نسبة الحاصل بالمصدر لمن هو؟، ومن عرف مسمى المخلوق وما هو، عرف الأمر كما هو وليس هذا إلا إلى الطائفة المرحومة، ألحقنا الله بها، وجعلنا من حزبها، قيل لي في الواقعة إنما أضاف تعالى الفعل إلى المخلوقات أحياناً من حيث إنهم صور وأشكال في الوجود الحق لا غير"⁶.

¹ الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، تح عبد الباقي مفتاح، مصدر سابق، ج 1، ص 143.

² الأمير عبد القادر، المواقف العرفانية، تح عمار طالبي ومحفوظ سماتي وآخرون، ج 1، ص 418.

³ المصدر نفسه ج 1، ص 251.

⁴ محمد إبراهيم الفيومي، الشيخ الأكبر ابن عربي صاحب الفتوحات المكية، الدار المصرية اللبنانية، دط، دت، ص 49.

⁵ نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، الهيئة المصرية للكتاب، د ط، 2002م، 140.

⁶ الأمير عبد القادر، المواقف العرفانية، تح عمار طالبي ومحفوظ سماتي وآخرون، مصدر سابق، ج 2، ص 306.

-تعظيم التكاليف الشرعية-

أما في مسألة العمل، فيركز الأمير على ضرورة الالتزام بالأوامر الإلهية والوقوف عندها بالتعظيم، وأما من ادعى سقوط التكاليف فقد لبس الشيطان عليه، وافترى على أهل الله وطريقهم، يقول الأمير: "ليس المقصود من التكاليف الشرعية إلا أنها أسباب وأدوية لرفع الحجاب عن وجه الأمر، وبعد فتح الباب ورفع الحجاب يزيد العبد تعظيماً للأوامر الشرعية والتزاماً لها، لأنه ما رأى كمن سمعاً ويكون إتيانه بالعبادات بعد رفع الحجاب على طريق أعلى وأفضل، وعلى وجه أعدل وأكمل، لا مناسبة بينه وبين إتيان العبادات الأول، وكل من ادعى أنه شم رائحة من أهل الله تعالى ولم يزد للشرع تعظيماً وللسنة اتباعاً فهو مفتر كذاب"¹.

وحاول الأمير أن يزيل التباين الظاهر بين الحقيقة والشرعية في كتابه المواقف، وهذه المحاولة لم تأت عن فراغ وإنما عن تضلع وتمرس بتراث أهل السلوك، زيادة على تضلعه في علوم الشريعة.²

لذا فالمواقف كتاب صدر عن رغبة ملحة في رسم حقيقة معالم السلوك خصوصاً بعد ما ركنت الأمة لثقافة التهديد والاتكالية وتاهت عن الأهداف الدنيوية الحقيقية.³

يذهب الأمير إلى أن المتكلمين في التوحيد العقلي خلطوا الأمر وحيروا الفكر، وخبطوا خبط عشواء، في ليلة ظلماء، فكلامهم إن كان في الذات البحث، فالذات لا كلام فيها بنفي أو إثبات، وإن كان في مرتبة الذات وهي الألوهية فهي لا حجر عليها ولا حصر ولا تقييد لها. فالذات البحث لا خبر عنها ولا وصف ولا اسم ولا حكم ولا رسم، المخبر عنها صامت، والناظر إليها باهت، فإن المطلق بالإطلاق الحقيقي لا يصح الحكم عليه بشيء، وإلا انقلبت حقيقته وصار مقيداً، وقلب الحقائق محال، ومرتبة الألوهية مطلقة مقيدة فهي جامعة للضدين، مطلقة من حيث إنها لا حصر ولا حد لظهوراتها، فلا ينفي عنها التعيين والظهور بشيء من الصور الحسية أو العقلية أو الخيالية، ولا التحول في الصور، ولا النزول والجمي، والهرولة، والجوع، والعطش، والمرض، ولا الجمع بين الضدين كالأولية والآخرة والظاهرية والباطنية، وكونه في الأرض السابعة، ومستو على العرش وموجود في كل مكان، ومع كل مخلوق وقائم على كل نفس ونحو هذا مما ورد في الكتاب والسنة.⁴

وهذه المسائل وغيرها نجدها مبثوثة في كتاب المواقف، توضح لنا الموقف الذي تبناه الأمير حول علم الكلام، وهو موقف في رأينا مشابه لموقف الغزالي الذي ذهب بعد تعمق طويل وبحث إلى أن أفضل الطرق هو طريق الصوفية، وأن سيرتهم أذكى السير، دون التقليل من مكانة علم الكلام وفضله. حيث يقول: "إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أذكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به."⁵

¹ المصدر نفسه، ج 1، ص 154.

² عشراي سليمان: الأمير عبد القادر المفكر، مساجلات في قضايا اللغة والمعرفة وفقه الخطاب القرآني، مرجع سابق، ص 250.

³ عشراي سليمان، مرجع سابق، ص 251.

⁴ الأمير عبد القادر، المواقف العرفانية، تح عمار طالبي ومحمود سماتي وآخرون، ج 1، ص 211.

⁵ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المنقذ من الضلال، تح عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر، دط، دت، ص 178.

وهو أيضا نفس موقف أستاذه الروحي ابن عربي الذي تتلمذ على أغلب كتبه، رغم التشنيع الذي قام به هذا الأخير على علم الكلام، ويبدو أن هذا الموقف في نظرنا لم يكن موقفا تعسفيا قام به هؤلاء، بقدر ما يؤكد لنا أن هذه نتيجة توصلوا لها بعد نظر وبحث دقيق، وترقي في مقامات السلوك، تفيد نتائج تجاربهم بأن المعرفة العقلية هي مرحلة تسبق علم التجليات الإلهية، وهو المصطلح المفضل الذي يستعمله الأمير عبد القادر للدلالة على أرقى مقامات السلوك وهو التصوف.

خاتمة

من هذا العرض المختصر الذي حاولنا من خلاله أن نطلع على تجربة الأمير عبد القادر، ومعرفة آرائه حول علم الكلام والمبثوثة في مؤلفاته، لا يمكننا إلا بأن نصفه بأنه قد تطور عبر مراحل ليأخذ هذا الموقف النهائي، بحيث لا يشكل رفضا مطلقا لعلم الكلام أو موافقة كلية له، بل إنه يرسم ملامح واضحة لعلم كلام جديد، ممزوج بمواقف وآراء صوفية عرفانية، مستمدة من وحي تجارب من سبقوه أمثال الغزالي وابن عربي، ومستمدة من فيض تجربته الروحية، ففي الحقيقة أن الأمير رغم أشعرته قد حاول أن ينتصر لعلم الكلام الصوفي إن صح التعبير أو إلى الحقيقة الصوفية وهي مسألة محل الخلاف بين المتكلمين من جهة وبين الصوفية من جهة أخرى، وقد حاول المتصوفة أن يجيبوا على إشكاليات كلامية برد المسألة إلى رتبة الألوهة الجامعة للأضداد، لذا فإن كل آرائهم تدور حول هذه المسألة وتنبي عليها جل آرائهم الكلامية .

قائمة المصادر والمراجع

- 1- إبراهيم الباجوري، تحفة المريد على جوهرة التوحيد، تح علي جمعة محمد الشافعي، دار السلام ط1، 1422هـ - 2002م.
- 2- الأمير عبد القادر الجزائري، المقرض الحاد لقطع لسان منتقض دين الإسلام، تح عمار طالبي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، دت.
- 3- الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، تح عبد الباقي مفتاح، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ج 1، د. ط، 2007م.
- 4- الأمير عبد القادر، المواقف العرفانية، تح عمار طالبي ومحفوظ سماتي وآخرون، مصدر سابق، ج 2.
- 5- حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تح جميل صليبا وكامل عياد، دار الأندلس للطباعة والنشر، لبنان، ط 7، د ت.
- 6- حامد محمد الغزالي، المنقذ من الضلال، تح عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، مصر، دط، دت.
- 7- سعد الدين التفتازاني: شرح المقاصد في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط 2، 1419هـ - 1998م .
- 8- سيف الدين الآمدي ، غاية المرام في علم الكلام ، تح حسن محمود عبد اللطيف ، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1391م - 1971 م.
- 9- الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، دط، 2004م،
- 10- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تح أحمد جار، دار الغد الجديد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1438هـ - 2017م.
- 11- عبد الوهاب فرحات، محاضرات في علم العقائد، جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، 2008-2009 م .
- 12- نصر الفريابي ، إحصاء العلوم ، تح عثمان أمين ، القاهرة ، مكتبة أنجلو الأمريكية ، ط3، 1968م .

- 13-عشراتي سليمان: الأمير عبد القادر المفكر، مساجلات في قضايا اللغة والمعرفة وفقه الخطاب القرآني، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران -الجزائر، ط2، 2004م.
- 14-عضد الدين الإيجي، المواقف في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت، دط، د. ت.
- 15-محمد ابراهيم الفيومي، الشيخ الأكبر ابن عربي صاحب الفتوحات المكية، الدار المصرية اللبنانية، دط، دت.
- 16-محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية، غرزوزي وجاويش، الاسكندرية، د ط، 1903م، ج2.
- 17-محمد عبده، رسالة التوحيد ط1، الجزائر، موفم للنشر 1989م.
- 18-منير بهادي، المخيال والتاريخ مقارنة فلسفية لتجربة الوجود عند الأمير عبد القادر الجزائري، الوسام العربي، عنابة، ط 1، 2018م.
- 19-نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، الهيئة المصرية للكتاب، د ط، 2002م.
- 20-هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، د.ط ، د.ت.

المجلات

- رابع بونار، الأمير عبد القادر حياته وأدبه، مجلة آمال، العدد 68، جويلية 1970م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر .
- عبد القادر شرشار بعنوان شخصية الأمير عبد القادر من منظور آخر ترجمة أشهر 19-مؤلفات الأمير عبد القادر من قبل الباحث الفرنسي جوستاف دوجا، مجلة التراث العربي، سوريا ، مجلد 23 العدد 90، 2003 م .